

الخوف من مجاعة عامة

(۱)

(ملخصة عن مقالة في مجلة القرن التاسع عشر لـ هتري ديو)
في سنة ۱۷۹۸ نشر ملتوس بحثه المشهور بعنوان «مبدأ زيادة السكان وتأثيره
في اصلاح حال المجتمع في المستقبل». وقال عند نشر هذا البحث انه ينتشره
«اعتقاداً ان اهل عصره واقفون على شفا زمان منعم بالاقتلابات الاساسية التي
ستكون من بعض الوجوه صاحبة القول النصل في مستقبل النوع الانساني». .
وخلصه بمشهور ان قوة زيادة السكان اعظم بما لا يحمد من قوة الارض على اخراج
الطعام اللازم لهم». وعليه أبان ان من اوجب الواجب وضع حد لزيادة السكان
اذا اريد دفع مجاعة عامة

وبما قال عن انكثرا بوجه خاص انه لا يمضي قرن «حتى يبلغ عدد سكانها
۱۱۲ مليوناً في حين ان ارضها لا تخرج من الطعام الا ما يكفي ۳۵ مليوناً فقط
فيبقى ۷۷ مليوناً (نحو الثلثين) لا طعام لهم من ارضها»

وبعد ذلك بقرن كامل اي في سبتمبر سنة ۱۸۹۸ وقف السير وليم كروكس
رئيس المجمع البريطاني حينئذ يخطب فيه فقال «ان انكثرا وسائر الامم المتقدمة
امام خطر عظيم وهو ان لا تجد من الخبز ما فيه كفاها»

وفي يومنا هذا كثيرون يقولون قول ملتوس وكروكس ويبشرون الناس
بمجاعة قريبة ناشئة عن نفاذ جميع مصادر الطعام وموارده. وتخصاتهم هذه
مفرغة في قوالب مبهمة يحاولون اظهارها بمظهر الحقائق بإيراد احصاءات ناقصة
يتلقفها الناس ويصدقونها ولا سيما ان الحرب تركتهم في خوف دائم من المجاعة

ولو صح ان قدرة الارض على اخراج الطعام بلغت حدها الاقصى وان
الناس لا يتقدم من المجاعة ما يبذلون من جهيدهم لحق القول ان الحضارة في
اشد ازمتها وان ثورة عامة طامة قريبة الوقوع. ولكن اذا اتضح لنا ان لا
أساس من الصحة لمثل هذا الزعم وان معادوا الارض ومواردها تكفي جميع حاجات
الناس وتزيد وانه لا يجب المجاعة العامة علينا غير حقنا وجهنا سهل حينئذ

ازالة الموائق والحوائل التي تحول دون شرد الامور الى مجراها الطبيعي من حيث اتاج الطعام وتوزيعه

والدين يزعمون ان العالم على شفا المجاعة يبنون زعمهم هذا على ثلاثة فروض :
الاول ان الطعام نادر ندرة عظيمة في بعض المساحات الواسعة من اوربا . والثاني
ان الطعام الذي كان يرد على اسواق العالم فيما مر من شرق اوربا وجنوبها الشرقي
اقتطع على ان لا يعود . والثالث ان البلدان التي تصدر الطعام الى الخارج بلغت
حدها الاقصى من الانتاج

وما يجب التنبيه اليه هنا حصة من مؤداها بانه تقدير حاجتنا الفعلية على
قواعد نظرية كما يظهر من المثل الآتي . فقد كانت المانيا قبل الحرب تستورد نحو
مليون طن من القمح سنوياً . والمعروف على سبيل الترجيح لا التوكيد ان
موسم القمح فيها سنة ١٩١٨ لم يزد كثيراً على نصف متوسط مواسمها العادية قبل
الحرب . وعليه كان يجب عليها سنة ١٩١٨ - ١٩١٩ ان تستورد نحو اربعة
ملايين طن من القمح لتكفي حاجات اهلها . والواقع انها لم تستورد سوى ٤٢٧
الف طن من القمح و ١٣٥ الف طن من الجويدار . وقد يظن انها لم تستورد
اكثر من ذلك لانها لم تجد حاجتها في اسواق العالم وبعبارة اخرى لان موارد
العالم قدت . ويرد على هذا انه في آخر موسم ١٩١٨ - ١٩١٩ بقي في اهرام
استراليا والارجنتين خمسة ملايين طن حنطة على القليل من المواسم السابقة .
وليس في الناس ما قل يقول ان المانيا كانت سنة ١٩١٨ - ١٩١٩ تستطيع شراء
جميع حاجتها من الحنطة . ومهما يكن مقدار هذه الحاجة فظاهر انها انما تشتري
ما كانت تستطيع دفع ثمنه قديماً او وعداً . وظاهر ايضاً ان ما كانت تستهلكه
من الحنطة قبل الحرب قليل الملائة بحاجتها الحاضرة . فلها مضطرة الى المبالغة
في الاقتصاد . ولا بد من مضي سنين كثيرة قبلما تتمكن من اشباع نفسها كما كانت
تعمل في ايام عزها وورائها

وقس على ذلك انصاف في الترق بين الحاجة الحاضرة وبين الطلب الفعلي . فقد
تضائل بعد انفصال شعوبها المختلفة عنها بعد الحرب حتى نقص عدد سكانها الى
٧ ملايين منهم ٢ في فينا ما ستمها وهم في حاجة الى واردات كثيرة من الطعام

لا يستطيعون الحصول عليها . ولم تستطع سنة ١٩١٨ - ١٩١٩ ان تستورد سوى ٣٤٢ الف طن من الحنطة

وقد ساعد المرجفين على المباشرة في تقدير ما تحتاج اوربا اليه من الطعام جهلهم ان الفقر والفاقة يجولان دون تمادي الناس في الشراء . وزد على ذلك ان الذين حاولوا الانباء بالمستقبل جهلوا بادىء بدء ما ستأول اليه حال الكميبيو فيما يرجح . على اننا اذا تحلنا لهم عذراً في هذا الباب لم نجد لهم عذراً على ما اكثروا من التشاؤم عن الاضرار التي لحقت بالاراضي الزراعية في الحرب وقولهم انها اضرار دائمة لا يمكن ازالتها وانه لا بدء من مرور زمان طويل قبلها يعود انتاج الطعام في البلدان التي طمت عليها سيول الحرب الى مجاريه المعتادة . وغندي كما قلت في مقالة سابقة انه اذا استقرت الاحوال الاجتماعية والسياسية في اوربا فان انتاج الطعام فيها يعود الى ما كان قبل الحرب بعد حصاد سنة ١٩٢١

على ان الاحوال الاجتماعية والسياسية لا تزال في كثير من بلاد اوربا بعيدة عن ان يسبح وصفها بالمستقرة . ولا يزال الشعور بالامن على النفس ناقصاً في حين انه لازم لكل اللزوم لحل القلاخ على زيادة انتاجه . ونحن نجعل الاحوال الزراعية في اوربا الوسطى ثقة ما لدينا من الاحصاءات الشافية عنها ولكننا نعلم ان مساحات واسعة منها تموزها الادوات الزراعية والاصحدة والبهائم وما اشبه ذلك ولكن هناك ما يحمل على الاعتقاد ان بلاداً كثيرة منها نفضت من حقولها وتقدمت تقدماً محسوساً في زراعتها

ولناخذ البلجيك شاهداً على ما يمكن عمله من هذا القبيل فان عندنا احصاءات وافية عنها . ويؤخذ من هذه الاحصاءات ان الاراضي التي زرعت فيها حبوباً هذه السنة من قح وجريدار ولوت وشعير اقل في مساحتها ٨ في المئة فقط مما كانت قبل الحرب . وجاءنا منها في اواخر السنة الماضية ان الزيادة الحديثة في انتاجها جعلتها تستفي عن كثير من الواردات الاجنبية وانه لا يعوزها شيء من المواد الضرورية . فالسكر فيها فاض عن حاجة اهلها فصدر هذا الفائض الى فرنسا

وليس من ينكر ان ما تخرجه اوربا الآن من الطعام اقل مما كان قبل الحرب

ولكن لا ينكر أيضاً انها تقدمت تقدماً يذكر من هذا القبيل وان استيرادها للطعام من الخارج اقل بكثير مما تدل عليه النظريات والاحصاءات ومن المبعث البحث فيما عسى روسيا وممالك البلقان ان تصدر من الصادرات الى خارج بلادها. فقد ثبت انه كان فيها منذ سنتين اهراباً تفيض خنطة ولو كانت طرق التجارة مفتوحة حينئذٍ بينها وبين سائر اوروبا لا غرقت الاسواق الاوربية بالحبوب . ولكننا لا نعلم هل باقٍ فيها الى الآن شيء من تلك الحبوب وما هو المقدار الباقي . وكل ما نعلمه بالتاكيد انه لا بد ان يفيض منها كثير من الخنطة في المستقبل فيصدر من موانئ البحر الاسود وان روسيا تستعيد يوماً مكانها الاول من اسواق الطعام في العالم

عل ان النصر ملتوس وكروكس لا يزالون كثيراً بهذه الاعتبارات ويقولون لنسبم جدلاً ان العالم يستطيع اجتياز هذه الازمة بمشقة كثيرة وان اراضي اوروبا الزراعية تستيد خصبها الاول وروسيا تعود الى امداد حبوبها كالمادة فان هذا كله انما يؤجل الظامة الموعودة الى اجل قصير لان سكان الارض وخصوصاً الهندية يستأنفون سيرهم الى يوم القضاء عليهم بمخفي تزايد على سلة هندسية . ولما كانت وسائل المعيشة قد بلغت الآن حدّها الاقصى فان شبح المجاعة يهين علينا من الآن وينذرنا بنهاية كل شيء وباتضاه كل اجل في زمن قريب

وما تجدر الاشارة اليه هنا ان الخنطة والطعام ليسا لفظين مترادفين ولا هما اسمين لمشي واحد ولكن الناعين بالمجاعة كالنسر ولهم كروكس مثلاً لا يبحثون وهم يتناولون هذه المسئلة الا في الخنطة والبلاد التي تزرع الخنطة . وربما كان في ذلك بعض النفع لنا لاننا نعلم عن الخنطة ومقدار ما ينتج العالم منها اكثر مما نعلم عن سائر مواد الطعام . وما دنا نبحت في الخنطة فلنبحت قليلاً في المقدار الذي ينتج العالم منها الآن فنقول -

ان البلاد الذي تزرع الخنطة الآن على قدر كبير هي خمسة - الولايات المتحدة الاميركية وكندا والارجنتين واستراليا والهند (وسيأتي الكلام على كل واحدة منها في بقية هذه المقالة)